شهداء المحروسة

بونابارت واحتلال مصر

د: أحمس حسن صبحي

دار الكتب العلمية
للنشر والتوزيع
القاهرة

2

شهداء المحروسة

(بونابرت واحتلال مصر)

....

د. أحمد حسن صبحي

صبحي، أحمد حسن
شهداء المحروسة- بونابرت واحتلال مصر / أحمد حسن صبحي. ط-١- القاهرة
دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠
٦٤ ص، ١٤× ٢٠ سم
تدمك: ٣ ٩٦٤ ٢٨٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١- مصر- تاريخ - الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١م)
٢- شهداء المحروسة (بونابرت واحتلال مصر)

٩٦٢,٠٢

رقم الإيداع: ١١٤١٦ / ٢٠١٠
الترقيم الدولي 3 - 964 - 287 - 977 - 978
الطبعة الأولى: ٢٠١٠

© حقوق النشر والطبع والتوزيع محفوظة لدار الكتب العلمية للنشر والتوزيع - ٢٠١٠.
لا يجوز نشر جزء من هذا الكتاب أو إعادة طبعه أو اختصاره بقصد الطباعة أو اختزال مادته العلمية أو نقله بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك دون موافقة خطية من الناشر مقدمًا.

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة
☎ ٢٧٩٤٨٦١٩ - ٢٧٩٥٤٢٢٩
فاكس: ٢٧٩٢٨٩٨٠

لمزيد من المعلومات يرجى زيارة موقعنا على الإنترنت

www.sbhegypt.org
info@sbhegypt.org
sbh@link.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إذا كان تاريخ مصر خلال السنتين اللتين قضاهما بونابرت وجيشه فيها، يكتب بدماء أبناء المحروسة مصر، لفاض الدم كثيرا عما يكتبه أى مؤرخ بإسهاب عن الحوادث التى مرّت بمصر خلال هاتين السنتين اللتين لم تهدأ فيهما روح النضال ومقاومة الغازى الفرنسى.

دخل بونابرت أرض مصر، والنشوة تملأ صدره بما حصده من أرواح المصريين وهو يدخل القاهرة، وأرواح أولئك الذين سقطوا يكتبون بدمائهم ملاحم النضال ضد المعتدى الغازى الذى استباح الأرض والعرض فى كل أنحاء مصر. وخرج منها مذعورا، فارا إلى بلده بعد أن أيقن أن استمرارية بقائه فى مصر أصبح مستحيلا.

لقد ثارت القاهرة على بونابرت وجنده. وقاوموا نار الفرنسيس وحديدهم بهراوات من الخشب، مضحّين بأرواحهم وأموالهم، رجالا ونساء، فى سبيل حرّية هذه الأرض الطيبة.

رحمة الله على شهداء مصر الذين سقطوا برصاص الفرنسيين منذ قرنين من الزمان، والذين سقطوا تحت

سنابك خيلهم وطعنات سنكهم. وسلام على الأزهر الشريف الذى تحطمت جدرانه من ضرب مدافع الفرنسيين، وضاعت كتبه وآثاره ومصاحفه الشريفة التى مزقها وسرقها اليهود المصاحبين لبونابرت فى حملته على مصر.

لازال الأزهر الشريف منارة الإسلام فى الدنيا، ولازالت مصر كما هى دائما، ولازالت القاهرة هى عاصمة المحروسة، شامخة بتاريخها ونضالها.

ولله الحمد والمنة. والله ولى التوفيق،

* * *

❶

شعر أستاذ التاريخ، أن تلاميذه متعطشون لمعرفة تاريخ بلدهم. قام بتنظيم رحلة إلى القاهرة لزيارة القلعة وما حولها ؟ هناك يُطل تاريخ مصر برأسه لا يستطيع أحد أن ينكره أو يتناساه. وفى القلعة وما حولها من أحياء، عاشت الأحداث وتفاعلت فيها. دخل الغزاة وخرجوا مهرولين، وجاء غيرهم وخرجوا، ولازالت القلعة وما حولها من آثار ومن فيها من بشر، أحرار مصريون لم يتأثروا بمن غزا أرضهم أو بقوا فيها أو خرجوا منها.

وقف الأستاذ وحوله تلاميذه فى ساحة مسجد محمد على، ينظرون إلى الأحياء القديمة المحيطة بالقلعة الشامخة، فقال لهم مدرسهم:

– انظروا إلى هذه الأحياء. كانت هى قلب القاهرة القديمة. تمتد من هنا وحتى الأزهر الشريف وما حوله. تلك هى القاهرة التى دخلها نابليون حالما بأن يجعلها عاصمة لإمبراطورية الشرق.

سأله طالب فى لهفة:

- هل تقصّ علينا يا أستاذنا، كيف دخل نابليون القاهرة وماذا فعل فيها. لقد وعدتنا بذلك.

ابتسم الأستاذ وهو يقول:

- نعم. سوف أقص عليكم هذا إن شاء الله. لكن هذه القلعة التى ترونها. وتقفون فى ساحتها شاهدة على جزء هام من تاريخ مصر، اختلفت استخداماتها من حاكم لحاكم. كل واحد منهم يستخدمها لغرض معين. نعود إلى الفرنسيين فنجد انهم استخدموها كقاعدة عسكرية لجيش الاحتلال الذى جاء به نابليون بونابرت، ليضرب منها المصريين بمدافعه،ويحيل بيوتهم إلى أطلال، ويفتك بأجسادهم، لا يفرق بين ثائر مصرى أو طفل برئ، بين شيخ قعيد او امرأة تحمل جنينا. قتل أهوج عشوائى أسقط الآلاف من آبائنا وأمهاتنا المصريين قتلى وكأنهم دُمىّ، خلقوا كأهداف تسلّط عليهم نيران الفرنسيين.

سكت المدرس عن الحديث، وقد امتلأ بالألم الذى انعكس على وجوه تلاميذه، فران صمت عميق بين الواقفين، قطعه الأستاذ بدعوة تلاميذه للجلوس حوله، ليقص عليهم كيف دخل بونابرت وجنوده القاهرة وما الذى فعلوه فيها.

سأله أحد تلاميذه:

- أكان هناك شهيدا فى القاهرة يا أستاذ قبل شهيد الإسكندرية؟

ابتسم المدرس ابتسامة تمتلئ بالمرارة قائلا:

– لم يسقط شهيد واحد فقط يا بُنيّ فى القاهرة بل الآلاف منهم. قدمت كل مدن وقرى مصر مئات الشهداء أثناء مقاومتهم للفرنسيين الغزاة. أراق

الفرنسيين دماء المصريين رجالا ونساء وأطفالا، تجرى أنهارا تروى أرض مصر الغالية.

سأله التلميذ متحمسا:

– هل تفضلت فقصصت علينا بعضا من قصص بطولة الشعب المصرى فى مقاومة احتلال الحملة الفرنسية لمصر؟

قال الأستاذ:

– نعم. وإن من الصعب علينا الآن أن نحكى عن كل قصص البطولة يا ابنائى، ولكننى سأمر سريعا على بعضها، فوراء كل مصرى سقط شهيدا، قصة بطولة تُحكى وتُقص، ولكن إليكم قصة شاب صغير فى مثل سنكم، عاش فى قرية: " الفقاعى" القريبة من مدينة "ببا" بالصعيد. فبينما كان الجنود الفرنسيين ينتظرون وصول بقية الجيش للزحف فى الصعيد، تقدم أحد غلمان القرية، وتغفل الجنود واستولى على بنادقهم وجرى. رأه الجنود

فجروا وراءه وضربــوه بالسيف فجرحوا ذراعه ورجله، وأخذوه جريحا إلى الجنرال " ديزيه " فسأله " ديزيه ":

- ما الذى دعاك إلى ارتكاب هذا العمل.

أجاب الفتى وهو رابط الجأش ناظرا إلى السماء:

- لم يحرضنى أحد إنما ألهمنى الله أن أفعل ما فعلت.

ثم رفع الفتى رأسه ونظر إلى الجنرال ديزيه وقال له فى هدوء وثبات:

- هاهى رأسى أمامك. اقطعها.

واندهش الفرنسى من شجاعة الفتى، فأمر بجلده ثلاثين سوطا، نالها على ظهره لا يتأوه ولا يتململ حتى استوفى الثلاثين سوطا.

قال المدرس لتلاميذه:

- هذه هى مصر. أولئك هم أولادها. فى دمهم الذود عن أرضها وعرضها ومالها. فى دمائهم قطرات دم شهداء مصر التى أهريقت فــوق أرضها عــلى مــر العصور، يبذلون الروح رخيصة من أجل حريــتها. ولنستمع الآن إلى قصة دخول بونابرت إلى القاهرة.

* * *

2

عندما استطاع بونابرت احتلال الإسكندرية، لم يضيّع وقتا، بل سار بعد خمسة أيام فقط من احتلال الثغر، فى طريقه لاحتلال القاهرة عاصمة المحروسة. ترك حامية فى الإسكندرية يرأسها الجنرال "كليبر"، وأخرى فى رشيد، يرأسها الجنرال "مينو"، اللذان أصيبا فى معارك الإسكندرية، وجدّ السير بحذاء البرّ الغربى للنيل حتى وصل إلى شبراخيت فى البحيرة حيث التقى جيشه، بجيش مراد بك من المصريين والمماليك،. كانت مدافع الفرنسيين حاسمة فى جعل مراد بك ينسحب سريعا من شبرا خيت، تاركا وراءه سلاحه وعتاده. وكان لانفجار سفينة القيادة المصرية فى النيل وتعطيل الأسطول المصرى عن العمل، أثره فى هزيمة مراد بك تلك الهزيمة السريعة، التى جعلت نابليون يزداد غطرسة وغرورا، فوق ما به من خيلاء.

أيقن الفرنسى المغرور نابليون أن الشجاعة والتضحية التى امتاز بهما المصريون غير كافية لكسب معركة، فعدوه يفتقر إلى النظام والخطط الحربية الحديثة، التى

يتمتع بها جيش الفرنسيس، إلى جانب ما لديهم من مدفعية متطورة توقف أى هجوم من الأعداء.

وأدرك بونابرت أيضا، أن المصريين المدافعين عن أرضهم أصبحوا يشعرون بالذعر، وطلقات المدافع الفرنسية تحصدهم حصدا، فيفرون سريعا بمجرد انطلاق المدافع تجاههم.

لم يضيّع بونابرت وقتا، بل سار بجيشه فى أثر فلول مراد بك.كلما دخل جنده قرية، أحرقوها ونهبوا ما فيها من ماشية وطعام، يقتلون كل الرجال والشباب ويغتصبون النساء. أحالوا الريف إلى مقبرة كبرى من البشر، وأحالوا خضرته اليانعة إلى هشيم محتضر، ينعى الإنسانية التى ادّعى ابن الفرنسيس أنه جاء بها إلى مصر.

لم يُسجّل التاريخ تلك الفظائع التى ارتكبها جند بونابرت خلال زحفهم من شبراخيت حتى إمبابة. لم يُشر إليها تفصيلا المؤرخون الفرنسيون لإحساسهم بالخزى والعار من ذكرها، واكتفوا بالقول أن الجنود ارتكبوا الفظائع فى القرى التى مروا بها، رغم تحذيرات قائدهم.

لكن أنباء المذابح انتشرت فى القرى التالية لتلك التى أحرقها الفرنسيس، فهرب منها الناس خوفا على حياتهم من تلك الفظائع، تاركين مواشيهم وزروعهم وبيوتهم يستولى عليها الفرنسيين ثم يحرقون القرى واحدة بعد الأخرى.

استعد مراد بك لمواجهة الغازى الفرنسى. قام بتحصين قرية " إمبابة " فأقام المتاريس ونصب المدافع العتيقة بها واستعد المصريون الجنود لملاقاة الفرنسيس. وضع مراد بك ميسرة جيشه والقلب فى خط يمتد بين النيل والأهرام، وحشد فيه فرسان المماليك وجموع المصريين من الفلاحين، ووضع فرسان العرب فى أقصى ميسرة جيشه.

استطلع نابليون الجيش المصرى من معسكره الذى أقامه فى قرية " بشتيل "، ثم رسم خطته بالهجوم على قلب الجيش المصرى بعيدا عن المدافع المصرية فى "امبابة ". وأحس بونابرت بالقلق يسرى بين جنوده، وهم يرون الأعداد الكبيرة من المقاتلة المصريين، فقال لهم نابليون:

- تقدموا أيها الجنود واعلموا أن أربعين قرنا من الزمان تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام.

لم تدم المعارك التى دارت بين الفريقين أكثر من ست ساعات فقط. مزقت المدافع الفرنسية صدور الفرسان المماليك والعرب وجموع المصريين، فهرب مراد بك ومن لحق به من المماليك إلى الجيزة، فحمل من قصره ما استطاع أن يحمله، ثم فرّ جنوبا إلى الفيوم ناجيا بحياته، تاركا المصريين فى "امبابة" يواجهون جيش فرنسا. مدافع قوية حديثة متحركة مقابل مدافع عتيقة ثابتة لا تتحرك.

فرّ مراد بك ومعه نحو ألفين من المماليك والعرب الذين لم يقتلوا فى المعركة، إلى الفيوم حيث معقل العُربان فى

مصر. قرر مراد بك تجميع المماليك الباقين والعرب المنتشرين فى أنحاء مصر وإعادة تكوين جيشه فى الفيوم. كان بقصر مراد بك فى الجيزة مستودعا للذخيرة والسلاح، وأمام القصر فى النيل، رست سفينة المملوك الخاصة، فأمر بتحميلها بالذخيرة والإبحار بها إلى بنى سويف حتى يجد جنوده ذخيرتهم.

وقف بونابرت يشرف على المعركة. انتهت ميسرة وقلب جيش مصر، قتل الآلاف منهم، وفر رئيس المماليك وبعض فرسان العرب جنوبا مع مراد بك. أدار بونابرت وجهة والسعادة تملؤه، ناحية امبابة. أصدر أوامره إلى مدفعيته، فانطلقت الحمم منها، تهدم الاستحكامات التى بناها الفلاحون المصريون. لم تستطع مدافع امبابة العتيقة أن تصل بقذائفها إلى جيش نابليون. وزحف الفرنسيس بعد القصف المتواصل على مواقع قرية امبابة الحصينة، وأفرغ جنود بونـــــابرت رصاصات بنادقهم فى صدور فلاحين مصر، المدافعين بالرماح والعصىّ. سقط الآلاف من الشهداء قتلى برصاص الفرنسيس أو تحت سنابك خيلهم أو بأسلحتهم البيضاء المثبتة فوق بنادقهم.

رفض المصريون رفع الرايات البيضاء والتسليم، رغم الدماء وأشلاء الجثث التى غطت أرض امبابة، وقام المصريون بإشعال النار فى السفن التى حشدوها على شاطئ النيل لكى تعاونهم، رفضوا ركوبها والهرب بها،

وأبوا أن يتركوها لتقع فى أيدى أعدائهم. ارتفعت ألسنة اللهب إلى عنان السماء، يراها كل من كان بالشاطئ الشرقى للنيل فى القاهرة.

أمر مراد بك مماليكه وهو يستعد للهرب إلى الصعيد بأن يتم سحب السفينة الحربية الرابضة أمام قصره بالجيزة وإرسالها إلى الصعيد، لكنها وقفت فى الطين لقلة المياه بالنيل، فأمر مراد بك بتفجيرها لئلا تقع فى أيدى الفرنسيس، فشاهد الناس النار من بعيد يرتفع لهيبها إلى عنان السماء، وسمعوا انفجارات السفن المصرية التى أحرقوها فى إمبابة، فآمنوا بأن الفرنسيس الغزاة سيحرقون بلدهم ويحرقونهم. بدأ سكان القاهرة فى الهروب، وهم يرون إبراهيم بك ومماليكه يفرّون مذعورين. خرج من القـــاهرة أعيان الناس وتجارها ونقيب الأشراف السيد عـــمر مـــكرم، والمشايخ القادرين. خرجوا من كل حدب وصوب. من وجد دابة ركبها ومن لم يجد مشى. رجالا ونساء وأطفالا يصرخون ويولولون وكأن يوم القيامة قد أتاهم فجأة.

انتظر بونابرت فى قصر مراد بك يوما، يراقب ردود الأفعال المصرية، لكن شيئا لم يحدث. بعث الفرنسى بونابرت بكتيبه على رأسها الجنرال "ديبوى" لاحتلال مدينة القاهرة. دخلها الجنود الفرنسيين، فلم يلقوا اى نوع من المقاومة، كانت وكأنها مدينة أشباح هجرها أهلها، ومن

أبقته قلة حيلته وفقره فى القاهرة، لزم داره ينعى بلده وأولادها الذين قتلهم الفرنج الغزاة.

لم يتأخر المصريون فى القيام بنصيبهم فى الدفاع عن بلدهم، لكنهم غُلبوا على أمرهم وأصبحت القاهرة بعد موقعة " امبابة " أو ما يطلق عليها " واقعة الأهرام "، مدينة مفتوحة الأبواب أمام الجيش الفرنسى الغازى. توقع أهل القاهرة بعدما رأوه من نار وما سمعوه من قصف يصمّ الآذان، أن يلاقوا العنت والأذى على أيدى الفرنسيين عند دخولهم المدينة.

كان الأزهر الشريف هو المكان الذى يُهرع إليه العلماء وزعماء المصريين كلما ألم بهم خطب ما. سارع العلماء والمشايخ إلى الأزهر صباح اليوم التالى لمعركة " امبابة ". وتشاوروا فى الأمر. اتفق رأيهم على أن يبعثوا برسالة إلى الفرنسيين يسألون عن أسباب حضورهم إلى مصر وما يقصدونه من دخول القاهرة. وقام رسولان من العلماء بحمل الرسالة التى كتبوها فى الأزهر للفرنسيين وذهبا إلى معسكر الجيش الفرنسى فى الجيزة.

استقبل بونابرت المبعوثين المصريين وسألهما عن عظمائهم ومشايخهم لأنه يود أن يوفر لهم كل سبل الراحة. طمأنهما، فقالا له:

– نريد منكم الأمان.

رد بونابرت قائلا:

- لقد أرسلنا لكم كتابا من قبل نشرح فيه أننا جئـــنا لمحاربة المماليك وأننا نحترم الإسلام والمسلمين.

قال الرسولان:

- نريد منكم وثيقة أخرى لكى يطمئن الناس.

فكتب بونابرت رسالة أخرى يؤكد فيها حرصه على القضاء على المماليك ويطمئن المشايخ والعلماء والرعية المصرية على مساكنهم وممتلكاتهم. وطلب نابليون منهما حضور المشايخ إليه ليشرح لهم رغبته فى إنشاء ديوان يُعينه من الأشخاص العقلاء لتدبير أمور القطر المصرى.

عاد الرسولان برد نابليون إلى القاهرة، فأطمأن الناس، وذهب وفد من العلماء إلى الجيزة لمقابلة بونابرت. سألهم عن بقية المشايخ والعلماء فأخبروه بسفرهم من القاهرة خوفا منه، فأعطاهم خطابات تكفل لهم الأمان وتطلب منهم العودة إلى القاهرة حتى يمكن له أن يؤسس الديوان الذى سوف يرعى مصالح الناس ويحافظ على تطبيق الشريعة فى مصر.

عندما عاد وفد العلماء برسائل الأمان التى كتبها بونابرت للعلماء الفارين، فرح الناس فى القاهرة بعودتهم بعد لقاء كبير الفرنسيين، وهم الذين كانوا يخشون أن يصيبهم مكروه على يد الفرنسيين الغادرين.

وفى الثالث والعشرين من شهر يوليه ١٧٩٨، دخل الجيش الفرنسى مدينة القاهرة، واحتل القلعة وما حولها، وسقطت عاصمة المحروسة أسيرة في يد الجيش الفرنسى الغازى. وفى الرابع والعشرين من يوليه، دخل بونابرت يحيط به قادة جيش فرنسا إلى القـــاهرة،

وتوجه إلى قصر " محمد بك الألفى " بالأزبكية، واتخذه مقرا له، يحكم منه مصر.

كان محمد بك الألفى، أحد زعماء المماليك، قد انتهى من تجديد قصره، زيّنه بأجمل النقوش وفرشه بأفخر الرياش، وجاء بونابرت يغزو مصر. كان الألفى من بين الفارين مع إبراهيم بك خوفا من بطش الفرنسيس الذين جاءوا - على زعمهم - لقتال المماليك، فسقط آلاف المصريين قتلى بمدافعهم وبنادقهم وسلاحهم الأبيض، فداء لشهوة القتل الفرنسى، وفرار المماليك المخزى.

دخل بونابرت مباشرة إلى قصر الألفى فى القاهرة وهو أمر يدل على أن الفرنسيس كانت لديهم مـــعلومات كاملة عن مصر. ليس عن القاهرة فقط، بل عن كل قرية من قرى مصر سواء فى الدلتا أم فى الصعيد. ويتضح هذا من طريقة زحفهم على مدن مصر المختلفة ومعرفة مساراتها وأنهارها وترعها ودروبها. ومما لاشك فيه، أن اليهود الذين عاشوا فى أرض مصر، وانتشروا فى مدنها وقراها، قدموا للفرنسيين هذه المعلومات قبل مجيئهم إلى مصر،

مساعدة لهـــم على غزو هذه الأرض الطيبة. كان اليهود فى مصر يتجنّسون بالجنسية الفرنسية حماية لهم وسط من يعيشون بينهم من المصريين، وللاستزادة من المزايا التى كان الأجانب يحصلون عليها فى مصر.

* * *

3

أصدر نابليون فى اليوم التالى لدخوله القاهرة أمرا بتأسيس ديوان القاهرة من تسعة أعضاء لحكم القاهرة من المشايخ والعلماء، وكان ممن اختارهم المشايخ، ثلاثة منهم. أولهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم، الذى غادر القاهرة إلى سوريا بصحبة إبراهيم بك، والسادات، ومحمد الأمير اللذان رفضا التعاون مع الفرنسيين، فتم اختيار ثلاثة غيرهم.

وقد أتبع ذلك إصدار نابليون أوامر بأن يعمم نظام الديوان فى كل مديرية من مديريات القطر المصرى. وكان الغرض من إنشاء ذلك الديوان من وجهة نظر نابليون هى تعويد المصريين نظم المجالس الشورية والحكم. وقد تم اختيار الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيسـا للديوان. وقد كان عمل هذا الديوان أساسا النظر فى النظام القضائى المدنى والجنائى والتشريع الخاص بالمواريث، وتسجيل عقود الملكية، والضرائب العقارية. وهى أمور تختص بالدرجة الأولى فى تنمية إيرادات ذلك الديوان، وجمع الأموال التى يحتاجها نابليون من المصريين، بواسطة زعماء المصريين.

وأنشأ نابليون بعد ذلك المجمع العلمى وكل أعضائه من علماء الحملة الفرنسية فى مختلف أفرع العلوم والفنون. واختار نابليون قصر " حسن كاشف شركس " بالناصرية ليكون مقرا لذلك المجمع.

تصور بونابرت، وقادة جيشه، مع الهدوء الذى ساد القاهرة، أن الأمر قد استتب لهم كما سبق لهم أن وضعوه فى اعتبارهم عند التخطيط لغزو مصر. اعتقدوا أن المصريين سوف يفرحون بدخول الفرنسيين وتخليصهم من ظلم الدولة العثمانية والمماليك. لكن ما حدث هو أن الحملة الفرنسية هزت مشاعر الأمة المصرية، فنفضت عنها غبار الجمود الذى كان يخيّم عليها من العصور المظلمة المتتالية التى جسمت على صدورهم من عثمانين ومماليك وما قبلهما من الأتراك الأسيويين الذين تولوا حكم مصر باسم الدولة العباسية.

استثارت هذه الحملة روح القومية المصرية، واهتاجت مشاعر المقاومة الأهلية فى نفوس المصريين. شعروا أن لبلدهم مركزا ممتازا فى العالم وأن لهم كيانا يدعوهم للمحافظة عليه. كانت المشاعر فى الصدور أحاسيس طبيعية طافت بالنفوس، وحفزتها للدفاع عن كيان بلادهم، فسرت روح المقاومة كلها فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها، خلال فترة وجيزة بعد استقرار نابليون فى القاهرة.

ولعل من أسباب هذه الروح القومية التى صحت فى صدور المصريين، الهزيمة النكراء التى مُنى بها الأسطول الفرنسى فى ميناء " أبو قير " بالإسكندرية على يد " نلسون " قائد الأسطول الانجليزى، وما يسمعونه من أخبار مقاومة الإسكندرية ورشيد والبحيرة ضد الغازى الفرنسى.

علم المصريون فى منتصف أغسطس ١٧٩٨، بالكارثة التى حلّت بالعمارة الفرنسية وإغراقها فى أبى قير بعد ساعات من بدء القتال بين الأسطولين.

لم ينج من الأسطول الفرنسى سوى أربع سفن استطاعت أن تفرّ من الميدان، وفقد الفرنسيون اكثر من أربعة آلاف قتيل.

واستطاع بونابرت أن يمحو بتأثيره السحرى على جنوده، أثر اليأس الذى تسرّب إلى نفوس الجنود، وشد من عزائمهم ونفخ فيهم روح الإقدام والبسالة.جمعهم وقال لهم:

– إن أسطولنا لم يعد له وجود. والآن علينا أن نبقى فى هذه البلاد أو نخرج منها عظماء كما فعل الأقدمون.

ثم جمع ضباطه وقال لهم:

– هانحن أولاء مضطرون أن نعمل العظائم وسنعملها، وأن نؤسس فى هذه البلاد دولة كبيرة وسنؤسسها.

إن البحار تفصل بيننا وبين الوطن ولاسلطان لنا على هذه البحار ولكن ليس هناك فاصل يفصلنا عن آسيا وأفريقيا.

فرّ إبراهيم بك ومعه مماليكه، وحمل معه الأموال والأسلحة إلى بلبيس، وأحس نابليون بخطر وجود المماليك فى شرق مصر فاعتزم القضاء عليهم. قامت قوات الفرنسيس باحتلال قرى الخانكة ثم أبا زعبل ثم بلبيس. وانتهت الحملة بعد معركة شرسه مع العُربان والفلاحين باحتلال الصالحية أيضا. لم تكن المقاومة للفرنسيين قاصرة على المماليك، وإنما كان الفلاحون المصريون هم أتون المعارك التى دارت فى بلاد محافظة الشرقية كلها والتى انتهت بسقوط آلالاف من الشهداء منهم، وهروب فلول المماليك مع كبيرهم إبراهيم بك إلى حدود مصر الشرقية مع فلسطين.

ترك نابليون حامية عسكرية، فى تلك القرى متخذا من الصالحية مركز للقيادة وتموين الجيش. وقد حول الجنرال " رينيه " قائد الحامية، مسجد الصالحية إلى مركز عسكرى للفرقة الفرنسية، متخذا من منارته مركزا للمراقبة، وحوّل صحن المسجد إلى مخابز وأفران للجيش ونصب مدافعه فوق سطح المسجد. ثم وسّع فى مبانى المسجد وأنشأ به مخزنا للبارود ومستشفى للجنود.

كان ذلك الإجراء الفرنسى وكأنه شرارة أوقدت النار غيظا فى صدور المصريين فظلوا فى قتال يومى مع الفرنسيين، يرفضون بيعهم المؤن والمواشى، مما جعل الفرنسيين يزدادون فجورا فى معاملة المصريين، وقتلهم

وسرقة مواشيهم من كل القرى المحيطة ببلبيس والصالحية، فهجرها أهلوها إلى القرى البعيدة عن الفرنسيس، وبقى الرجال من الفلاحين والأعراب فى إغارات مستمرة على جنود فرنسا، يسقط منهم الشهداء فيأتى المدد إليهم، رجال من كل صوب للإسهام فى مقاتلة الغازى الفرنسى، مما دعا بونابرت إلى اعتقال زعماء القبائل العربية وشيوخها فى تلك النواحى وقام بإعدامهم فى القاهرة.

بينما كان جنرالات نابليون بونابرت، يطيحون برقاب المصريين فى كل مكان ، يحاولون إخــماد نار الثورة التى اشتعلت فى صدور أبناء مصر بكل الأقاليم، شمالها وجنوبها، شرقها وغربها، حاول بونابرت أن يجعل من القاهرة مستقرا هادئا،يحكم منه، مدركا أن ما يحدث فى القاهرة ينعكس بالتالى على كل أقاليم المحروسة.

ظن بونابرت ان الطريقة الوحيدة ليبعد عن شعب القاهرة التفكير فى وجود الفرنسيين على أرضهم، هى إقامة الاحتفالات التى تدخل البهجة على قلوبهم. أمر الفرنسى المتعجرف أن يشترك جيشه فى الاحتفال بعيد وفاء النيل مع الشعب، فأطلقت المدافع والصواريخ النارية، لكن الأهالى قاطعوا الاحتفال ولم يخرجوا للتنزه فى المراكب بالنيل كعادتهم كل عام.

وجاء المولد النبوى الشريف، فأمر بونابرت بالاحتفال به، وعين خليل البكرى نقيبا للأشراف بدلا من السيد عمر مكرم الذى هاجر بعد الغزو الفرنسى إلى يافا وأقام بها. امتنع الناس عن الاحتفال كعادتهم، ولكن بونابرت أصر على أن تعزف الموسيقى فى الميادين وإقامة الموكب الذى تقدمه نقيب الإشراف الجديد.

وكان اختيار أمير الحج، احتفال درجت مصر على أقامته كل عام فى فرح وزينة. اختار بونابرت مصطفى بك كتخدا وكيل الوالى التركى، كأمير للحج وأبلغ به الدول الإسلامية، وأهداه جوادا أصيلا وبعث إلى شريف مكة يخبره بالتعيين والتعهد بأن يرسل مع أمير الحج، الأوقاف التى ترسل إلى مكة كل عام والتى كانت الحجاز تعتمد كلية على ما ترسله مصر فى موسم الحج.

وجاء العيد الأول للجمهورية الفرنسية، فانتهزها بونابرت فرصة كبيرة لعمل كل ما يستطيع أن يخلب به لب أهل القاهرة بالزينات والأعلام والساريات والبوابات والتماثيل، والموسيقات تصدح، والجنود فى ملابسهم المزركشة فى كل مكان، عيونهم على الناس خشية القيام بعمل عدائى ضد الفرنسيس. أقاموا فى ميدان الأزبكية ساريا كبيرا جدا، أسموه رمز شجرة الحرية، فأطلق عليه أهل مصر أنه رمز للخازوق الذى وضعوه فى قلب مصر.

لم تفلح سياسة بونابرت بإقامة الحفلات ومحاولة إدخال البهجة على أهل القاهرة، فى نزع ما فى نفوس هؤلاء المصريين من غُصّة ومرارة تجاه الفرنسيين. كان بونابرت يهدف أيضا من وراء تلك الاحتفالات، نزع الروح الإنهزامية التى سيطرت على جنوده بعد فناء أسطولهم الكبير فى ميناء أبى قير، فـإن كـان قد نجح فى الأخيرة، إلا أنه لم ينجح أبدا فى استئصال شأفة الكراهية التى حطت فى صدور المصريين تجاه الفرنسيس.

أشرك نابليون زعماء المصريين فى الاحتفال بعيد فرنسا، فدعا أعضاء الديوان وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان. وقام بونابرت بإلباس الشيخ الشرقاوى الوشاح الفرنسى بلون علم بلده، فنزعه الشيخ الشرقاوى ورماه فوق الأرض وانصرف. حاول بونابرت أن يُلبس باقى أعضاء الديوان الوشاح فأبوا مثل شيخهم الشرقاوى. أدرك الفرنسى المغرور، أن المصريين لن يقبلوا أبدا نير الاستعمار الفرنسى، وأن هؤلاء الفلاحين المسلمين يحتاجون لأكثر من المداهنة فقرر فى رأسه خطوته التالية فى إخضاع هذا الشعب.

لم تهدأ مدن وقرى مصر منذ حط جنود بونابرت أرجلهم على شواطئ الإسكندرية وتلوثت أياديهم بدم شهداء مصر فى مذابح يندى لها جبين كل من سمع بها. ومنذ دخول بونابرت مدينة القاهرة، بدأ الغازى الغاشم فى توزيع

قواته على مديريات الوجه البحرى وفـرض الغرامات على القرى التى تبدى أى مقاومة للفرنسيين، وفرض الضرائب على تلك التى لا تقاومهم.

بعث بونابرت إلى الجنرال " زيون شك " الذى عينه قومندانا للمنوفية بتعليماته فى معاملة الأهالى يوم ٤ أغسطس ١٧٩٨ يقول فيها:

- إننى أوافق على إعدام خمسة من الأهـالى فى كـل قرية من القرى الثائرة.

ثم اتبعه بتعليمات أخرى يقول له فيها:

- أصدر أوامرك بأن تقدم كل قرية جوادين من خـير الجياد، وأيما قرية لم تفعل ومضـت خمسة أيام من إعلانها بالأمر ضربت عليها غرامة ألف ريال. هذه هى الطريقة الفعالة للحصول على خمسمائة من الجياد تسد حاجتكم. إنـها الوسيلة الوحيدة لإخضـاع هذه البلاد.

وعندما دخل الجنرال " فوجير " قومندان الغربية بجنده المديرية، قوبل بمقاومة عنيفة فى قريتى إمرين وتتا، ودار قتال شرس بين الفلاحين المصريين والفرنسيس، استشهد من القريتين خمسمائة فلاح وفلاحة مصرية مسلمين وأقباط، فلقد قاتلت النساء جنبا إلى جنب مع رجالهن واستشهدن، فى إحدى ملاحم شعب مصر العظيم. خسر الفرنسيون فى تلك المذبحة قتيلا واحدا وإثنى عشر جريحا

فقط. وحرق الفرنسيس القريتين. ثارت طنطا وأهلها وسط الاحتفال بمولد السيد أحمد البدوى، وكان الفرنسيون يعرفون أن شعب مصر يعتبر ذلك المولد كحدث هام ومقدس فى حياتهم. أخذ القائد الفرنسى أربعة من أئمة المسجد كرهائن لضمان سكينة الناس الذين رفضوا دفع الضرائب للفرنسيس. وعندما أنزلهم إلى المراكب ليرسلهم إلى القاهرة، ثار أهل مصر وهجموا على الأعداء لتحرير الأئمة. رفع الأهالى الرايات، فانضم إلى الثائرين أهالى القرى المجاورة وفرسان العرب، لكن نيران الفرنسيين استطاعت تفريقهم، وهربت القوة الفرنسية فى السفن. وجرّد بونابرت حملة عسكرية فى قرى الغربية، تعمل تقتيلا وسرقة فيها، وحرق القرى التى تقاوم دخول الفرنسيس إليها.

وفى الدقهلية ودمياط، لم تهدأ مدن المديريتين أبدا. وشهدت أراضيهما معارك طاحنة بين شعب مصر والفرنسيس. وفى إحدى ملاحم شعب مصر، هجم أهل المنصورة رجالا ونساء، على الحامية الفرنسية بالمدينة فاشعلوا النار فى معسكرهم، فهرب الفرنسيس إلى دمياط، فخرج إليهم الأهالى يقطعون عليهم الطريق وأبادوهم عن آخرهم. ويعرف هذا اليوم بواقعة المنصورة فى اليوم العاشر من أغسطس ١٧٩٨.

بعث بونابرت بالجنرال " دوجا " لعقاب المنصورة.

أعدم اثنين وطاف جنده برأسيهما فى المدينة للعبرة. انتظر الفرنسيس حتى انحسر الفيضان، فقام الجند بغزو القرى وحرقها وقتل ابنائها ثم نهبها.

كانت الثورة كالنار، كلما أخمدت فى جهة، انبعثت فى جهة أخرى. ووصفها الفرنسيون بأن الثورة الأهلية كانت كالحيّة ذات المائة رأس، كلما أخمدها السيف والنار فى جهة، ظهرت فى ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت.

تزعم " حسن طوبار " شيخ بلد مدينة " المنزلة " والذى يعيش فى المدينة رئيسا لأربعين من رؤساء قرى شواطئ بحيرة المنزلة، حركة الثورة فى المنزلة والمنصورة ودمياط، إذ أن البحيرة تربط المنطقة كلها. ولقد ازدادت المقاومة الشعبية فى تلك المناطق بعد المذابح التى قام بها أحد الجنرالات السفاحين فى قرى دمياط. كان الجنرال " فيال " حاكم تلك المدينة لا يعرف الرحمة، وكأن الله قد نزعها من قلبه. كان يهجم بجنوده على القرية فيحرقها ويبيد من بها بعد سرقة ونهب ما فيها. ولقد أججت مذابح السفاح " فيال " ثائرة ومشاعر المصريين فى المنطقة، واستطاع " حسن طوبار " وجيشه المكون من الأهالى والصيادين، إنزال الرعب بالفرنسيس طوال محاولاتهم غزو تلك المنطقة وإخضاعها لحكمهم.

نظم حسن طوبار، هجوما فى قرية " الجمالية " قرب المنصورة، على السفن الفرنسية التى تحمل الجنود فى

طريقهم إلى المنزلة. وانتقم الفرنسيون من القرية فأحرقوها وقتلوا خمسمائة من سكانها كانوا يحاربون الفرنسيس بالعصىّ.

لم يسع بونابرت، وقد أزعجه حسن طوبار فى المنطقة الهامة التى يسعى للسيطرة عليها، إلا أن يبعث بخيره ضباطه إلى دمياط الذين قاموا بتحصين المدينة وإصلاح قلاعها وتسليحها والسيطرة عسكريا على كل مداخل المدينة ومخارجها. كانت دمياط هى ثانية المدن أهمية فى مصر بعد القاهرة من ناحية التجارة، حيث كان ميناؤها يستقبل واردات الشام وتركيا ويصدر منها الحرير والمنسوجات المصرية.

استطاع الفرنسيس الاستيلاء على الجزر الموجودة فى بحيرة المنزلة التى سقطت فى أيديهم بعد مقاومة عنيفة من الأهالى، وهرب حسن طوبار إلى غزة، لأنه يدرك أن الفرنسيس يطلبون رأسه. ثم تمكن الفرنسيون من احتلال مدينة المطرية، ليتسنى لهم أخيرا السيطرة على البحيرة وما حولها.

لم يمل بونابرت التفكير فى وجود مراد بك على أرض مصر فى الصعيد، وخوفه من إعادة هجومه على القاهرة، فهو يلقى من شعبها عدم القبول، وثورة قرى الدلتا لا تهدأ، وجزء كبير من قواته تعمل فى كل أنحاء الدلتا لاخضاع القرى الثائرة. كان وجود مراد بك بجوار القاهرة، حافزا

لاستمرار العصيان الصامت لأهل القاهرة، فقرر تجريد حملة عسكرية لمطاردة المملوك الهارب والقضاء عليه وعلى فلول جيشه من المماليك.

ولما كانت رأس بونابرت مليئة بأفكار وآمال أعظم من مجرد احتلال أرض مصر، رأى أنه يستطيع أن يدخر قوته وجنده إلى حين، فكلف قنصل النمسا فى مصر " روستى " بالتفاوض سرا مع مراد بك بإسم بونابرت لتوقيع معاهدة سلام بينه وبين الفرنسيس، تقضى بإعطاء مراد بك حق حكم المنطقة من أسوان حتى جرجا على أن يدفع للفرنسيين الخراج المقرر على المنطقة. يزعم بونابرت أنه جاء إلى مصر لمحاربة المماليك وطردهم، لكنه يفاوض مراد بك سرا على اقتسام مصر معه.

رفض مراد بك شروط بونابرت معتزا بقوته التى يتصور أنها كفيلة بهزيمة الفرنسيس فى الصعيد. قرر الفرنسى بونابرت تجريد حملة للقضاء على مراد بك. وعين نابليون الجنرال " ديزيه" قائدا عاما لتلك الحملة. وعلى الرغم من صعوبة المواصلات فى صعيد مصر، إلا أن الحملة الفرنسية على الصعيد استطاعت احتلال بنى سويف ثم البهنسا وحتى أسيوط. عادت الحملة إلى الفيوم، ووقعت حرب حقيقة بين الفرنسيين والمماليك الذين يساندهم الشعب والعربان فى مرتفعات بحر يوسف. ويوم ٧ أكتوبر ١٧٩٨ فى مكان يعرف بسدمنت، وكان عدد

جيش مراد بك ضعف عدد جيش ديزيه، لكن مدفعية الفرنسيين استطاعت أن تبيد الكثير من فرسان الجيش المصرى و الكثير من مشاته، فسقط الآلاف ما بين قتيل وجريح بينما فقدت فرنسا ٣٤٠ قتيلا و١٥٠ جريحا. قضت تلك المعركة على آمال مراد بك فى الانتصار فى معركة واحدة منتظمة، وفتحت " واقعة سد منت " أبواب إقليم الفيوم أمام الجنرال ديزيه.

لم ينعم الفرنسيون بالهدوء بعد احتلال الفيوم، فقد ثار الأهالى ضدهم وهجموا عليهم لكنهم خسروا المئات من القتلى والجرحى دون فائدة. آمن المصريون أن المماليك لا فائدة ترجى منهم ، فقد حرضوهم علـى الثورة والقتال، وساعة النزال لم يظهر لهم وجود، فأسقط المصريون هؤلاء المماليك من حساباتهم.

تلقى ديزيه مددا من بونابرت، فاستأنف حملاته على مدن الصعيد، فاحتل جرجا ثم أسيوط، يستولى على بيوت المماليك، ويطاردهم، وكان الفرنسيون يستولون على ما يجدونه فى طريقهم من ممتلكات الناس بدعوى المصادرة ومساعدة المماليك. وقد واجه الفرنسيون ما بين جرجا وأسيوط حروبا متصلة. ثورة أهالى القرى على الفرنسيس من جهة، وتعبئة مراد بك لقواته فى تلك المنطقة، وطلبه المعونة من عرب الحجاز. كانت خسائر الأهالى فوق المتصوّر، والمدافع والبنادق الحديثة التى يستخدمها

الفرنسيون تقوم بالمذابح بين الأهالى المحرومين من النظام وغير المزودين إلا بأسلحة قديمة.

وسار الفرنسيس إلى سوهاج وقوبلوا بثورة الأهالى التى انتهت على يد جيش بونابرت بترك ثمانمائة جثة شهيد وشهيدة مصرية على الطريق إلى طهطا التى فاجاتهم بهجوم الناس على مؤخرتهم، فقام الفرنسيون بمذبحة اخرى تعدى فيها عدد القتلى الألف مصرى. ورأى الفرنسيون ذووا الإنسانية المزعومة، أن الأهالى لا يريدون السلام، فارتكبوا من الفظائع فى القرى التى يمرون بها، ما يشيب لهوله الولدان. كانت حجتهم أن ذلك هو عقاب تلك القرى لأنها ساندت الثوار.

عندما وصلت قوات فرنسا إلى مدينة " سمهود "، كان مراد بك قد جمع جيشا مكونا من ١٢ ألف جندى، منهم ألفين من عرب " ينبع " بقيادة الشريف حسن، وباقى جيشه من ملوك المماليك والمصريين الذين انضموا إليه من كل مكان لمقاومة الفرنسيس. وعلى الرغم من تفوق عدد جيش مراد بك، إلا أن "ديزيه " هزمه واضطره إلى الفرار إلى ما بعد أسوان، تاركا المصريين يواجهون الموت بالآلاف، ومدافع الفرنسيس تحصدهم حصدا.

ترك أهل صعيد مصر فى تاريخ بلدهم، صفحات مشرّقة من النضال والكفاح ضد المستعمر الفرنسى. لم يخفض أهل الصعيد جناح الثورة والمقاومة طوال بقاء

حملة بونابرت فى مصر. ولعل من أهم حوادث المقاومة المصرية، قيام الأهالى فى قرية " بارود " بالقرب من " قوص " بالهجوم على أسطول الفرنسيس المكون من اثنتى عشرة سفينة تقل الذخائر والمؤن للجنرال ديزيه. عام الأهالى فى النيل وانقضوا على الجنود بالسفن واستولوا على الذخائر، واضطر قائد الأسطول " موراندى " أن يفجرّ سفينة القيادة " إيتاليا " - التى كانت سفينة بونابرت الخاصة - حتى لا تقع الذخائر فى أيدى المصريين. قتل المصريون كل الجنود الفرنسيين فى تلك السفن. خسر جيش فرنسا خمسمائة قتيل فى تلك الواقعة، وهى أكبر خسارة منى بها الجيش الفرنسى فى حملته.

ومن أشد المعارك هولا، معركة " أبنود " التى استمرت ثلاثة أيام، إذ استخدم المصريون المدافع التى استولوا عليها من السفن الفرنسية، لكن الفرنسيس أضرموا النار فى القرية وهدموا مسجدها. وعلى الرغم من انتصار الفرنسيين فى نهاية المعركة، إلا أن الروح العدائية التى قابل بها الأهالى الفرنسيس، جعلت قواد جيش فرنسا يقاسوا الأمرّين وهم لا يجدون قوتا فى القرى التى يمرون بها. يجدونها خاوية من كل شئ.

كلما توغل الفرنسيون فى الصعيد وتركوا بلدة وراءهم، تجددت الثورة الشعبية فيها، فيضطرون إلى العودة إليها واستخدام القسوة المبالغ فيها لمعاقبة الثائرين. فقد تجددت

الثورة فى جرجا وقنا وبرديس، وجهينة وبنى عدى التى أحرقها الفرنسيون عن بكرة أبيها لإنهاء مقاومة الأهالى بها. ذهب ضحية الانتقام الفرنسى من بنى عدىّ، ألفان من رجال ونساء مصر. ثم ثارت المنيا وأبو جرج ثم فى أطفيح.

ولم يجد الجنرال " ديزيه " حلا للقضاء على تلك الثورات، سوى باعتقال أعيان المدن ووضعهم فى سجن أسيوط مهددا بقتل أعيان كل بلدة يثور أهلها. وبعد أن اطمأن الفرنسيس على موقفهم الحربى، جرّد "ديزيه " حملة عسكرية سارت من قنا فى الصحراء الشرقية حتى وصلت إلى القصير فاحتلت جـنوب شاطئ مصر على البحر الأحمر يوم ٢٩ مايو ١٧٩٩.

* * *

4

مرّت أيام معدودة على دخول بونابرت إلى القاهرة، تم فيها تشكيل الديوان من الزعماء المصريين، ثم أعلن الفرنسى الغاصب يوم ٢٨ يوليه ٣٩٨، أنه فرض على سكان القاهرة سلفة إجبارية قدرها نصف مليون ريال، يدفعها التجار المسلمين والنصارى والقبط والشوام. ذهب أعضاء الديوان إلى بونابرت يسألونه التخفيف عن المصريين فرفض وأمر أعضاء الديوان أن يبدأوا فى جمع المال. لم يستطع الديوان الذى شكله الفرنسيون أن يمنع فرض الضرائب الباهظة على أهل البلاد أو تخفيضها، فسقطت منزلته فى نظر المصريين.

بعدما استقر الحال بالفرنسى المتسلط بونابرت فى القاهرة، قام جنده بمصادرة الأملاك بحجة احتياج الفرنسيين لها، وقاموا بإخراج ملاكها منها. كما قاموا بهدم بعض المساجد والمبانى الأثرية، بحجة تحصين القاهرة. وقد قام الفرنسيون بهدم تلك المبانى وتركيب المدافع مكانها، وكانت القلعة هى أشد تخريبا بواسطة جند بونابرت.

وكانت الحارات فى القاهرة ، تمـــتاز بوجود أبواب كبيرة فى مداخلها، كان شيخ كل حارة يقوم بإغلاقه عند الغروب، ثم بفتحه فى الفجر وذلك حماية لأهل الحارة من اعتداء اللصوص. أمر بونابرت فى أغسطس ١٧٩٨، بهدم أبواب الحارات والدروب وجعلها مفتوحة أمام جنده. اشتد قلق الناس وسرت مقولة بين المصريين بان الفرنسيين كانوا يقصدون من هدم الأبواب أنهم عازمون على قتل الناس وهم فى صلاة الجمعة. استغل بونابرت اجتماع الديوان فى ذلك اليوم، وخرج ضباط فرقته الهندسية إلى الحارات يهدمون الأبواب، فتصور الناس أن الإجراء تم بموافقة الديوان.

كانت الصدور فى القاهرة تفور من الغليان، وزاد الطين بلة، إعدام السيد محمد كريم، الأمر الذى أوغر صدور المصريين. وزاد من حنق أهل القاهرة على الفرنسيين، ما كان يتواتر من أخبار عن الفظائع والمذابح التى ارتكبها جند الفرنسيس فى المديريات المختلفة بمصر المحروسة، والإسراف فى القتل والتعذيب لإدخال الرهبة فى قلوب الأهالى. وشاهد الناس بالقاهرة، طوابير الرهائن الذين أحضرهم الفرنسيون من الريف وحبسوهم فى القاعة. تمثلت الوحشية الفرنسية فى معاملة أهل مصر، فى الرسالة التى بعـــث بها بونابـــرت إلى الجنـــرال " زيون شلك " قومندان المنوفية، يقول فيها:

- لابد أن تكون جاءتك تعليـماتى لتـنظيم مديريتكم. يجب معاملة الأهالى بمنتهى القسوة. إنى هنا أقتل كل يوم ثلاثة وآمر بأن يطاف برءوسهم فى شوارع القاهرة، وهذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاءالناس.

استطاع بونابرت بسياسة الإرهاب والتنكيل بشعب مصر، ان يحيل القاهرة الوادعة، إلى بركان ثائر ضد الفرنسيين. كان الناس يتحدثون فى الطرقات عن مظالم بونابرت وجنده، ويتبادلون الأخبار عن المجازر التى قاموا بها فى الأقاليم وسقوط آلاف القتلى برصاص الغزاة. وجاءت الضرائب المتتالية التى يفرضها الفرنسيون على أهل القاهرة، والغرامات، كالقشة التى قصمت ظهر البعير.

جاءت الضرائب الجديدة المفروضة على أهل القاهرة فأشعلت بركان الثورة، كانت الدعوة إلى الثورة تختلط علنا بأذان المؤذنين من فوق المنائر، فيدعون إلى الله ثـم إلى الثـورة مع كل نـداء. وكـان فرض الضرائب على البيوت وما صاحبها من دخول الفرنسيين إلى كل بيت لتقدير قيمة الضرائب هو قمة الإثارة لمشاعر المصريين فى القاهرة.

ظل الأزهر الشريف هو المعقل لكل من يتذمر، وهو فى الصدر الحانى الذى يضم إليه كل ثائر وناقم على ما يجرى عليهم، فتشكلت هيئة تشبه لجنة الثورة على الفرنسيين المغتصبين، كان رأسها هو الشيخ السادات، يعقد جلساته

فى الأزهر الشريف لتدبير تنظيم الثورة ودعوتها، وتحريض الناس على التمرد، وإثارة الشكوك حول أعضاء الديوان يتهمونهم بممالأة الفرنسيس.

وكانت الدعوة إلى الثورة تتردد على ألسنة الأهالى، تحد تعاطفا منهم، حتى فرضت الضرائب على الأملاك فزادت النقمة على الفرنسيين، ودعت لجنة الثورة المكونة من ثلاثين مصريا، الناس إلى الثورة، فأوعزوا إلى التجار بإغلاق متاجرهم يوم ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ ودعوة التجار والصناع إلى مركز القيادة الفرنسية العامة للاحتجاج على فرض الضرائب الجديدة.

خرج الناس فى صبيحة ٢١ أكتوبر إلى الشــوارع يتجمعون دون موعد، واتجه الجمع إلى بيت القاضى التركى إبراهيم أفندى، ليحمل شكواهم إلى بونابرت. ولما رأى التركى الجموع، خاف وعاد إلى بيته فرجمه الناس بالحجارة. كانت تلك هى بداية الثورة. اتجه الناس
يتجمعون دون موعد، واتجه الجمع إلى بيت القاضى التركى إبراهيم أفندى، ليحمل شكواهم إلى بونابرت. ولما رأى التركى الجموع، خاف وعاد إلى بيته فرجمه الناس بالحجارة. كانت تلك هى بداية الثورة. اتجه الناس إلى الأزهر وتجمعوا فيه يهتفون بالقتال، وامتلأت الشوارع بالناس يحملون الأسلحة ويتجهون إلى الأحياء الفرنسية لمهاجمتها.

جاء الجنرال " ديبوى " حاكم القاهرة فى جنده، راكبين خيلهم والأسلحة بأيديهم لتفريق المظاهرات وسط الحارات الضيقة. أثارت طلقة رصاص أطلقها "برطلمى الرومى " رئيس الشرطة الفرنسى على المتظاهرين، كل أنواع الغضب والمرارة، فهجموا على الجند الفرنسيس وقتلوا حاكم القاهرة " ديبوى " والكثير من جنده.

انتشر نبأ مقتل حاكم القاهرة بسرعة البرق، وتشجع الناس بهذا النصر الأول، فزاد عدد الثائرين واشــتدت حميّة القتال فى دمائهم فاستولوا على المواقع المحيطة بمدينة القاهرة، وأقاموا المتاريس فى الشوارع والحارات يقاتلون الجنود الفرنسيين. وانضم إلى ثوار القاهرة، أهل الضواحى الذين جاءوا من بلبيس والجيزة وغيرها، وتحصن الثوار بأعداد هائلة فى الجامع الأزهر.

وجاء اليوم الثانى للثورة فى ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨، واستعد المصريون للقتال. لم يعلموا أن السفاح بونابرت، أمر جيشه مساء ذلك اليوم بنصب المدافع فوق القلعة، والتلال المشرفة على الأزهر الشريف وأحياء المصريين المحيطة بالمسجد الكبير. كان الصباح مشهودا، فقد توافد على القاهرة جموع أهالى القرى المجاورة. تجمع الناس فى الشوارع، صيحاتهم تتصاعد إلى السماء فتصم الآذان. رأى الناس المدافع التى نصبها الفرنسيون على المرتفعات، فتوجهوا إليها، لكن المدفعية ورصاص الفرنسيس صدت

تلك الجموع وأدخلت الرعب فى قلوبهم وهم يرون الأجساد التى تتساقط من حولهم أشلاء لحم اختلطت بالدماء من جـرّاء القصف العشوائى الهمجى الذى رمى به الفرنسيس أبناء مصر.

أصدر بونابرت أوامره بقيام كتائب من جنده بحصار القاهرة لمنع دخول المزيد من الثوار إليها، وفى إحدى المواجهات بين المصريين وقوة فرنسية يقودها "سلكوسكى " ياور بونابرت المقرّب، استطاع المصريون قتل ذلك الضباط ـــ مقابل المئات من المصريين الذين سقطوا شهداء برصاص الفرنسيس.

توجه أعضاء الديوان إلى الفرنسى السفاح بونابرت يسألونه عدم ضرب القاهرة بالمدافع، فعاملهم بغلظة وأمرهم بمخاطبة الثوار لإلقاء السلاح والكف عن القتال. لم يوافق الثوار المحتشدين فى الجامع الأزهر مقابلة أعضاء الديوان أو الاستماع إلى ما يقولونه على لسان السفاح بونابرت.

جاء الظهر من يوم ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨، وانطلقت مدافع الفرنسيس. آلاف القنابل تنهال على الأزهر الشريف والأحياء المجاورة له. تنفجر بهول لم يعهده سكان القاهرة من قبل. استولى الرعب على نفوس الأهالى، فتقدمت كتائب الفرنسيس، تحتل الشوارع المؤدية إلى الأزهر الشريف، فانحصر الثوار بين نارين. نار المدافع من فوقهم، ونار الجنود من حولهم.

أوشك الجامع الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب، وتدفن تحت انتفاضة الجماهير المحتشدة فيه، وأصبح الحىّ المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير، ومات تحت الأنقاض الآلاف من السكان الآمنين.

اختلت صفوف الثوار وطلبوا الهدنة والتسليم، فأوقف الفرنسيس ضرب المدفعية ورمى المصريون السلاح ورفعوا المتاريس من الشوارع، فدخل الجنود حتى وصلوا إلى الجامع الأزهر، فعسكروا فيه طوال الليل. وتغلبت قوة الحديد والنار مرة أخرى على مقاومة شعب أعزل لا سلاح معه وخسر المصريون أربعة آلاف قتيل، غير أولئك الذين دفنوا تحت الأنقاض، وآلاف الجرحى. وخسر الفرنسيون مائتى قتيل وحسب. من بينهم الجنرال " ديبوى " والكولونيل ياورونابرت، وضابطين من المهندسين، قتلا عندما هجم الثوار على بيت رئيس فرقة الهندسة الفرنسية الجنرال " كافاريللى " - الذى كان المصريون يسمونه " أباخشبة " نظرا لاستعماله رجلا خشبية بعد تلك التى قطعت فى إيطاليا.

جاء إخماد الثورة بالصورة الوحشية التى تمت بها بأثر مضاد فى نفوس المصريين. أراد بونابرت كسر شوكة أهل القاهرة بما فعله من إجراءات همجية فى القضاء على الثورة، فكانت النتيجة الحتمية هى تأصل الكراهية المصرية فى صدروهم ضد الفرنسيين. جاء يوم ٢٣

أكتوبر، فدخل الفرنسيون الأحياء المصرية، يهدمون المتاريس الباقية ويقتلون كل ما يصادفهم فى طريقهم، حتى دخلوا الأزهر الشريف وهم راكبون خيولهم. عندما ترجّل الجند، ربطوا خيولهم أمام قبلة الجامع الأزهر، كسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبه ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والودائع، ورموا بالمصاحف والكتب على الأرض وداسوا فوقها بأرجلهم. وكل من صادفوه بالجامع من المصريين، جردوه من ثيابه وأخرجوه عاريا منه، زيادة فى إهانة المسلمين.

أقام جند بونابرت فى المسجد ومنعوا الناس من دخوله، وانتشر الجنود فى الشوارع المحيطة به، يكسرون البيوت وينهبون ما فيها، بحجة التفتيش على الأسلحة، والقبض على الناس بحجة الاشتراك فى الثورة والزج بهم فى السجون التى امتلأت بالمصريين.

تجاوزت إجراءات بونابرت كل حدود الإنسانية فى مقاومة شعب القاهرة المسالم. فقد أصدر بونابرت تعليماته إلى قومندان القاهرة يقول له فيها:

– اقطع رءوس جميع المسجونين الذين أخذوا ومعهم الأسلحة. عليكم إرسال الجثث فى هذه الليلة إلى شاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها فى النهر.

وأرسل بونابرت إلى قومندان الشرقية كتابا يقول فيه، والنشوة تملأ روح الشر التى جسّدت كلماته:

- عادة السكينة إلى القاهرة، وفقد الثائرون نحو ألفى قتيل، وفى كل ليلة نقطع رءوس نحو ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الأهالى، وأظن أن هذا سيكون درسا قاسيا لهم.

وأصدر المجلس العسكرى الفرنسى صباح يوم ٢٤ أكتوبر ١٧٩٨، قرار بإعدام أعضاء لجنة الثورة الذى أصبح مكونا من ثمانين من العلماء والمشايخ، وتم إعدامهم رميا بالرصاص وإلقاء جثثهم فى النيل سرا. وامتنع بونابرت عن محاكمة الشيخ السادات أو إعدامه خوفا من تجدد الثورة، لما كان يعرفه الفرنسى من المكانة التى يتمتع بها ذلك الشيخ بين أهل مصر.

أمر الفرنسيون الأهالى القاطنين حول ميدان الأزبكية، حيث يقيم بونابرت وقواد جيشه، بإخلاء بيوتهم ليقيم بها العسكريون والفرنسيون المدنيون الذين كانوا موزعين فى أحياء القاهرة، ليجتمعوا فى حىّ واحد، خوفا من الأهالى، وهم الذين أدركوا مدى السخط والكراهية التى حطت فى صدروهم تجاه الفرنسيين.

كما أصدر بونابرت تعليماته المشدّدة إلى جند الفرنسيس بعدم السير فرادى أو بدون سلاح أو الابتعاد عن معسكراتهم لأى سبب، خوفا من بطش المصريين لهم.

أصدر بونابرت قراره بإبطال اجتماع الديوان بعد إخماد الثورة، عقابا لسكان القاهرة على ثورتهم. لم يقبل نابليون شفاعة أعضاء الديوان لإطلاق سراح العلماء الذين أعدمهم: إسماعيل البراوى - يوسف المصيلحى - عبد الوهاب الشبراوى - سليمان الجوسقى - أحمد الشرقاوى، وكلهم من علماء الأزهر. لكنه قبل خروج الجنود من الجامع الأزهر الذى أصبح حطاما من داخله ومتهدما من خارجه.

انبنت خطة بونابرت بعد انتهاء الثورة فى القاهرة، على تحصين القاهرة تحصينا جيدا تحسبا لأى ثورة أخرى. أمر بإعادة إصلاح وترميم كل القلاع التى تحيط بالقاهرة، وبناء عدة حصون جديدة، تطوّق المدينة.

وقد اقتضى هذا الأمر، هدم العديد من المساجد والمنازل، وقطع أشجار النخيل لبناء المتاريس حول القاهرة. وقام الفرنسيس بنصب مدفعيتهم فى تلك القلاع. وقام الفرنسيون ببناء طرق تصل هذه القلاع ببعضها خارج القاهرة. ثم قام بونابرت بتحصين الجيزة، التى كان مراد بك يتخذها مقرا له، ومحاطة بسور منيع أقيمت عليها الأبراج وبها دار للصناعة. اختارها بونابرت كمركز للمدفعية ومخازنها ومستودع للذخائر.

وفى خطوة إرهابية أخرى لبونابرت ضد الشعب المصرى، أمر قواته فى الأقاليم المحيطة بالقاهرة، بإلقاء

القبض على زعماء تلك الأقاليم بدعوى مساندة ثورة القاهرة. وتم اعتقال الشيخ سليمان الشورابى شيخ قليوب وثلاثة من مساعديه وإعدامهم بتهمة الاشتراك فى الثورة. ثم استمرت عمليات الإعدام العشوائى بين المصريين لعدد لا يعلمه إلا الله، فهو وحده سبحانه وتعالى يعلم عددهم، وهو عز وجل الذى سيرحمهم إن شاء الله.

* * *

5

استطاع القهر الفرنسى بالحديد والنار، أن يخمد ثورة القاهرة. واشتد الإرهاب الفرنسى للمواطنين العزّل بالتعذيب والإهانة والسلب والنهب، فضجّ الناس مما أصابهم من توالى المصائب عليهم واستمرار ظلم الفرنسيين، فكسدت الأسواق وتوقفت التجارة وتعطل العمل فى الإدارة. شحّ المال فى القاهرة، فقلّ بالتالى المال الداخل إلى الحكومة والجيش الفرنسى من الضرائب.

أيقن بونابرت ان استمرار هذه الحالة سوف تضرّ بالفرنسيين فى مصر، وعلم من جهة أخرى أن الدولة العثمانية بدأت فى تعبئة جيش للزحف به عن طريق سوريا لتحرير مصر. كانت الدولة العثمانية، وهى التى تعتبر مصر وسوريا من أملاكها. قد أعلنت الحرب على فرنسا بسبب احتلالها لمصر.

رأى الفرنسى المتكبر أن من الحكمة أن يعمل على استرضاء المصريين بإعادة الحياة الطبيعية إلى البلاد، لأن استمرار حكم الإرهاب فى القاهرة يجعل من مصر

المحروسة كلها فى حالة من العصيان والثورة مما يزعزع الاحتلال الفرنسى. رأى أن السيف لم يستطيع أن يوقف الثورة أو أن يعيد البلاد إلى حالتها الطبيعية وأن الحل الوحيد أمامه لإيجاد نوع من الهدوء وإعادة الحياة إلى الشارع، هو الاعتماد مرة أخرى على مشايخ علماء الشعب كنوع من الوساطة بين الشعب المصرى وبين الفرنسيس.

أصدر بونابرت بيانا إلى الشعب المصرى يعلنه فيه بأنه قرر إعادة الديوان، يوم ٢١ ديسمبر ١٧٦٨ بعد أن عطله عقابا لأهل القاهرة على الثورة التى قاموا بها. وأنه رأى بعد أن سكنت الأحوال وهدأت الخواطر إعادة الديوان مرة أخرى. وملأ بونابرت المنشور بعبارات جوفاء كعادته فيما يصدر عنه من منشورات، تظهر قوته ليُشعر الناس بالخوف منه.

قام الفرنسى المغرور بتعيين أعضاء الديوان من ستين عضوا من بينهم عدد من الأجانب، ثم دعاهم لانتخاب الديوان الخصوصى من أربعة عشر عضوا، واحتفظ بونابرت بحق الموافقة على أسماء المنتخبين. ومن الواضح أن بونابرت قد اختار بنفسه أعضاء ذلك الديوان الخصوصى لأن الأجانب الثلاثة المعينين فى الديوان، اختيروا ضمن الديوان الخصوصى. وجاء الشيخ عبد الله الشرقاوى، رئيسا لذلك الديوان.

لم يكن تعيين بونابرت للديوان حُبا فى مصر والمصريين، بل كان الفرنسى يريد تأمين ظهره فى القاهرة لهدف فى رأسه، جاء من أجله إلى مصر. كانت عينه على فلسطين والشام. عرف نابليون أن بداية الطريق لذلك هو احتلال السويس ومدخل البحر الأحمر. يفكر فى مشروع كبير يصل البحرين المتوسط بالأحمر، فيقضى على طريق التجارة البحرى الذى تتحكم فيه انجلترا عند رأس الرجاء الصالح. يفكر فى الوصول إلى الهند، ويتمنى تحقيق حلمه الأكبر بالاستيلاء على فلسطين والشام والإحاطة بالدول العثمانية التى أعلنت الحرب على فرنسا، وتحالفت مع الانجليز ضد بلاده.

أمر بونابرت الجنرال " بون " يوم أول ديسمبر ١٧٩٨، بتجريد حملة عسكرية إلى مدينة السويس واحتلالها. وخرج جنود الفرنسيس من القاهرة وبلبيس بأسلحتهم وعدّتهم، فساروا فى طريق الحجاج حتى السويس، فدخلوها يوم ٧ ديسمبر، ووجدوا المدينة شبة خاوية، فنهبها الفرنسيس عن آخرها.

فعندما بلغ أهل السويس أن الفرنسيس فى طريقهم لاحتلال مدينتهم، هرب الناس وأخلوا البلدة. أقاموا فى بلدة "الطور"، والبعض منهم هرب إلى الصحراء يقيم عند الأعراب. كانت السويس، ميناء البحر الأحمر تستقبل العديد من المتاجر من آسيا وأفريقيا وأهمها الشاى والبن والأمتعة.

فقام الجنود الفرنسيس بالاستيلاء على تلك البضائع وعملوا تكسيرا فى البيوت وأخذ أخشابها.

وعندما استقر الجند الفرنسيس فى السويس، ودانت لهم الأمور فيها، كان بونابرت قد عين الديوان، ثم اختار الجنرال "كليبر" ليكون نائبا له فى القيادة العامة، وسار يوم ٢٤ ديسمبر ١٧٩٨ من القاهرة فى جماعة من كبار قواده والمهندسين وبعض الأعيان من المصريين، فوصل السويس بعد يومين.

لم يضيع بونابرت وقتا وهو فى السويس، بل جاب كل النواحى المحيطة ببرزخ السويس وطور سيناء، ثم استطلع آثار ترعة الفراعنة القديمة وخليج أمير المؤمنين، وعهد إلى كبير مهندسيه، دراسة مشروع حفر ترعة تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط.

علم بونابرت وهو بالسويس، أن جنود والى عكا احمد باشا الجزار، قد احتلت قلعة العريش يوم ٢ يناير عام ١٧٩٩. وكانت العريش تعتبر منذ قديم الزمان جزء من الأراضى المصرية. وعلى الرغم من أن الفرنسيين لم يصلوا إلى العريش واحتلالها، لا أن بونابرت اعتبر أن احتلال جنود الدولة العثمانية للعريش هو مقدمة لزحف الجيش العثمانى على مصر.

قرر بونابرت أن يفاجئ الدولة العثمانية قبل أن تقدم هى على مهاجمته فى مصر. قرر إنفاذ حملته العسكرية

لاحتلال فلسطين والشام، تحقيقا للحلم الذى داعب خياله بتكوين إمبراطوريته من النيل حتى الفرات. لم يضيع بونابرت وقتا، بل عاد من السويس إلى القاهرة يوم ٦ يناير ليعد حملته العسكرية على سوريا.

كان بونابرت يدرك أن نفوس المصريين تموج بالكراهية للفرنسيين، وأنهم سينتهزون أى فرصة للانقضاض على المحتل الغاصب. فكر فى أن قيام ثورة فى القاهرة أثناء غيابه عنها فى حملته على سوريا التى يخطط لها، سوف تقطع عليه خط الرجعة، فاتخذ كل الاحتياطات الحربية ليضمن عدم وقوع أية ثورة أثناء غيابه. أمر بتقوية قلاع القاهرة وأحكام طرق الاتصال بينها وأمدها بالمدافع والذخيرة والمهمات، وجعلها فى حالة منيعة من الدفاع.

كان جنود الفرنسيس فى الوجه البحرى موزعين فى كل مكان فيها، وجزء كبير من جيش بونابرت يحارب فى الصعيد. أعاد ترتيب قواته، فوحّد القيادة فى مديريات الوجه البحرى وخفض عدد القوات بها.

أراد بونابرت أن يبعث برسالة إلى الشعب المصرى، فقرر ان يصطحب معه أربعة من أعضاء الديوان من المصريين، وكذلك أمير الحج نائب الوالى التركى، وقاضى القضاه فى مصر، التركى إبراهيم أدهم أفندى. كان ذلك الاختيار يهدف إلى محاولة اقناع شعب مصر بأن الديوان

يؤيد حملة بونابرت على سوريا. لكن هؤلاء الرجال رفضوا الاستمرار مع بونابرت وعادوا إلى القاهرة قبل منتصف الطريق إلى العريش.

وجاء شهر رمضان عام ١٣١٣ هجرية، قبل أيام من بدء الحملة البونابرتية على سوريا ، فبالغ الفرنسى الداهية فى إظهار الاهتمام بذلك الشهر الكريم من تفخيم موكب رؤية الهلال. وسار بونابرت فى جيشه من القاهرة يوم ١٠ فبراير عام ١٧٩٩ فى طريقه إلى احتلال فلسطين وسوريا، لكنه عاد منها مهزوما يوم ٤ يونيه ١٧٩٩ بعد أن ارتكب من الفظائع والمذابح ما يشيب لهوله الولدان.

كان تغيّب أكثر من نصف الجيش الفرنسى عن مصر، مصاحبا لبونابرت فى حملة سوريا، ذا أثر كبير فى نفسية شعب مصر. أدرك المصريون مدى قوة شكيمة ذلك الفرنسى المجنون الذى يقطع الصحارى ليغزو سوريا، وفى نفس الوقت، يدركون ما فعلته بهم المدافع ورصاص الفرنسيين خلال ثورة القاهرة، ويرون مدى التحصين الذى أقامه الفرنسيس حول القاهرة فى القلاع والحصون. أدرك المصريون انه لا أمل لهم فى التخلص من ذلك المعتدى، وبات الأمل معقودا على هزيمة بونابرت فى سوريا بواسطة العثمانيين.

هدأت الحالة فى القاهرة بعد رحيل بونابرت، وشارك الفرنسيس الذى عينهم بونابرت للأشراف على الديوان، فى

الاحتفال مع المصريين بشهر رمضان الكريم وأظهروا احتراما لأعضاء الديوان، بما يضمه من علماء ومشايخ ورؤساء القطاعات التجارية فى مصر، الذين يمكنهم التأثير على الشعب. لكن قلوب السواد الأعظم من المصريين لم تصف قلوبهم يوما للفرنسيس، فاتهموا أعضاء الديوان بممالأة الفرنسيين بسبب حصولهم على المزايا المادية والمعنوية.

لكن انتصارات بونابرت السريعة واستيلائه على العريش، وإرساله الأسرى من العثمانيين والمماليك وكذلك الأعلام والرايات العثمانية التى استولى عليها جيش بونابرت، إلى القاهرة ورفعها على منارات الجامع الأزهر والتى بعث معها بخطاب إلى الجنرال "دوجا" حاكم القاهرة، يقول له فيه:

– إنى أرى أن تقابلوا أعضاء الديوان فتتفقوا وإياهم على إقامة حفل صغير لاستقبال الأعلام المرسلة إليكم وإذا لم يكن من حرج فضعوها فى الجامع الأزهر إيذانا بالانتصار الذى حازه جيش مصر على عساكر الجزار وأعداء المصريين.

لم يجعل ذلك التملق من بونابرت للشعب المصرى، بوصف جيشه بأنه جيش مصر، أن تصفو قلوب أبناء مصر لذلك الفرنسى ولجيشه الغازى. ولكن نتيجة ذلك كانت الهدوء العام، لانتظار ما سوف تسفر عنه

الأحداث، مع الإحساس بخيبة الأمل لذلك الانتصار السريع الذى حققه الفرنسيس.

أعطى انتصار بونابرت فى العريش إحساسا للفرنسيين فى مصر، بالقوة والفخر فعادوا إلى تعسّفهم وجبروتهم ضد أبناء مصر. احتاج بونابرت إلى المزيد من الطعام والزاد من مصر، فقام جنوده بحملات لمصادرة الجمال والحمير والماشية، وفرض الأتاوات والضرائب الجبرية على أبناء مديرية الشرقية، فثارت نفوس الأهالى، وبدأت المصادمات بين المصريين وبين الجنود الفرنسيين.

خرجت كتيبة فرنسية من بلبيس - عاصمة الشرقية حينذاك - فى آخر فبراير ١٧٩٩، تطوف بالقرى لمصادرة الجمال والحمير. وفوجئت فى قرية "بردين" بجوار الزقازيق، بالأهالى يخرجون عليهم للقتال، فانسحب الفرنسيس، ثم جاءوا بالمدد من الجنود وأعادوا الهجوم على القرية، التى انضم إلى أهلها الفلاحون من القرى المجاورة، يصدون المعتدين، واستطاعوا أن يهزموهم، فهرب الفرنسيس إلى بلبيس بعدما قتلوا ثلاثمائة فلاح مصرى.

ارتفعت الروح المعنوية بين المصريين، لكن الجنرال "دوجا" بعث بالمدافع والجنود من القاهرة بأوامر صريحة

بحرق القرية وإفناء أهلها، وتم لهم ذلك، ثم اتجهوا إلى قرية " الزنكلون " فحرقوها بعدما هرب أهلها منها.

لم تهدأ الشرقية بعد مذبحة "بردين"، فعندما انسحب أمير الحج من جيش بونابرت وبقى فى الشرقية، أعلن العصيان على الفرنسيين، فالتف المصريون حوله.

أخذ أمير الحج يدعو إلى الثورة ضد الأعداء فى كل أرجاء الشرقية، وكان مشايخ القرى والبلاد يؤيدونه والناس من ورائهم. وانتقلت فكرة الثوة من الشرقية إلى الدقهلية، وسار أمير الحج إلى بلدة "دقادوس" ثم "ميت غمر"، والآلاف من المصرين ينضمون إلى الثورة.

رأى الثوار قرب ميت غمر، سفنا فرنسية فى النيل تحرسها سفينة حربية، تحمل الذخائر والإمدادات للجيش الفرنسى فى دمياط، فهجم المصريون عليها وقتلوا من فيها واستولوا على مابها من المدافع والذخائر، واستطاعت السفينة الحربية الهروب والعودة إلى القاهرة وأكثر بحارتها وقبطانها من الجرحى.

كانت شرارة الثورة فى الشرقية والدقلهية تهدد القيادة الفرنسية فى مصر، فكان الدهاء حلا سريعا. عزل الفرنسيون امير الحج من منصبه،وبعثوا بالسلاح إلى المديريتين الثائرتين فقام الفرنسيون بمذابحهم المعهوده فى

"كفور نجم" وحرقوا "ميت غمر" و"منوف" و"المنصورة" وانتقلت الثورة إلى البحيرة، بعد ظهور رجل مغربى، ادعى أنه المهدى جاء لمحاربة الفرنسيين، فالتف حوله الناس، ودارت المعارك بين الفرنسيين والثوار حتى استطاع الفرنسيون احتلال دمنهور وإخماد ثورة ذلك المهدى.

* * *

❻

عاد نابليون من فلسطين والشام وأخبار هزيمته تسبقه، لكنه كعادته تعمد دخول القاهرة فى موكب عسكرى مهيب تتقدمه الرايات العثمانية التى غنمها فى الحرب، يسوق أمامه طابور الأسرى من الجيش العثمانى. واستقبله الفرنسيون بالقاهرة استقبال الغزاة فى موكب طاف بالقاهرة على مدى خمس ساعات من يوم ١٤ يونيه ١٧٩٩.

لم يضيّع بونابرت وقتا فى القاهرة، وهو يعرف أن الدولة العثمانية قد أرسلت جيشا كبيرا لينزل فى مصر لمحاربة الفرنسيين. وبالفعل فقد رست السفن العثمانية فى أبى قير وأنزلت منها خمسة عشر ألف جندى، استطاعوا احتلال قلعة أبى قير. سار بونابرت إلى الإسكندرية ونظم قواته بعد استدعاء أجزاء من تلك القوات الموزعة فى الصعيد والدلتا ، وجرت معركة "أبو قير البرية " يوم ٢٥ يوليه ١٨٩٩، واستطاع الفرنسيون هزيمة العثمانيين بسرعة كبيرة لم تعهدها الحروب من قبل. كانت هزيمة العثمانيين كارثة بحق إذ فقدوا نحو ثمانية آلاف قتيل وأسر

الفرنسيون ثلاثة آلاف غيرهم وغنم الفرنسيون مدافع وذخيرة الجيش العثمانى، وتم اسر مصطفى باشا قائد الجيش العثمانى وابنه أيضا الذى حاول أن يقاوم بعد تسليم ابيه.

عندما عاد نابليون إلى القاهرة يوم ١١ أغسطس، كانت القاهرة والأقاليم فى حالة سكون رهيب بعد ذيوع خبر نزول العثمانين فى أبى قير. ثم انتابت العاصمة حالة من الذهول على أثر انتشار أخبار الهزيمة التى لقيها العثمانيون على يد ذلك الفرنسى بونابرت.

وعلم بونابرت أن الدولة العثمانية تحشد جيشا كبيرا بقيادة الصدر الأعظم يوسف باشا ضيا، للهجوم به من الشام على مصر، كما علم أن الحالة الحربية والسياسية فى فرنسا ليست كما يجب بعد توالى هزائمها العسكرية فى أوروبا، وهو السبب الذى منع فرنسا من إمداد بونابرت بالعتاد والرجال والسفن كما كان يتوقع.

قرر بونابرت أن يعود إلى فرنسا، تاركا مصر بعد أن تحطمت آماله فى امتلاك تلك الأرض التى تصور أنها سوف تكون قاعدة امبراطوريته التى يحلم بها من النيل إلى الفرات. أعاد حساباته ووجد أن سيطرته على فرنسا سوف تمهد له الأرض ليحكم أوروبا ثم العالم.

أمضى بونابرت وقتا غير طويل فى كتابة تعليماته لقواده فى مصر. نظم الدفاع عن الأقاليم، ووضع خطط

مواجهة الجيش العثمانى القادم من فلسطين، ونظم المسائل الإدارية والمالية. لم يخبر أحدا باعتزامه السفر، ولا حتى أولئك الذين اختارهم للسفر معه إلى فرنسا. وزيادة فى تغطية خبر سفره، بعث برسالة إلى السلطان العثمانى بواسطة مصطفى باشا قائد الجيش العثمانى الأسير، يطلب فيها الصلح مع العثمانيين، مذكرا إياه بالعلاقات التى ربطت بين فرنسا والدولة العثمانية. كما بعث الفرنسى الداهية برسائل إلى أمراء مراكش وطرابلس وشريف مكة وأمراء الحبشة ودارفور، تحمل معانى المودة وطلب التعاون معهم. لكن بونابرت لم ينتظر رد تلك الرسائل، بل بعث بها وكأنه ينتظر ردودهم فى القاهرة.

أعلن بونابرت أنه سوف يسافر إلى منوف لتفقد أحوال الجيش الفرنسى هناك. ومن منوف علم أن الأسطول الانجليزى قد غادر إلى شواطئ الشام فى جولة استكشافية، فقرر انتهاز الفرصة التى قد لا تسنح له مرة أخرى، فسافر إلى الإسكندرية، وغادرها يوم ٢٢ أغسطس ١٧٩٩ على متن السفينة "لاموين"، التى تصاحبها ثلاث سفن أخرى فى طريقها إلى فرنسا.

أعد نابليون قبل سفره من الإسكندرية،عدة رسائل الأولى للجنرال كليبر الذى اختاره كقائد عام للجيش الفرنسى فى مصر. شرح فى رسالته إلى كليبر كل ما كان يفكر فيه وهو بالقاهرة. الحالة الداخلية وحصون مصر

والإدارة المالية والمشروعات الأخرى، ثم جزء كبير من تلك الرسالة عن احتمالات الجلاء عن مصر إذا ما تحرجت الأمور بالتفاوض مع العثمانيين لعقد الصلح.

وكتب بونابرت رسالة إلى أعضاء الديوان يعلمهم بأنه سيغيب عن مصر لثلاثة أشهر يعود بعدها بأسطول وجيش جديد لمحاربة العثمانيين. ثم وجه رسالة إلى الجيش الفرنسى يشيد فيها ببطولته ويطالبهم بالطاعة لخليفته كليبر.

وصل بونابرت إلى فرنسا يوم ٩ أكتوبر ١٧٩٩، فاستقبلته فرنسا استقبال الأبطال ليتولى قيادتها لتهزم به أرض الدنيا كلها. نسى نابليون مصر، لكن مصر لن تنسى ذلك الفرنسى الداهية السفاح الذى أراق دماء مئات الآلاف من أبناء مصر حبا فى شهوة القتل وسفك الدماء.

* * *

7

نظر المدرس فى ساعته، وقال لتلاميذه:

- هذه باختصار شديد، قصة دخول نابليون إلى القاهرة وما فعله فيها ذلك الرجل الذى تحالف مع الشيطان، لتعذيب أهل مصر الطيبين. جاء الفرنسيون إلى مصر، عبئًا ثالثًا يرزح تحته المصريون، وكأنهم لم يكتفوا بظلم العثمانيين والمماليك.

قال التلميذ يخاطب أستاذه:

- لم تحدثنا يا أستاذنا عما حدث لنابليون فى فلسطين. كيف انتصر وكيف انهزم.

ابتسم الأستاذ بمرارة قائلا:

- إن قصة غزو بونابرت لفلسطين والشام من القصص التى أخفى التاريخ جوانب كثيرة هامة منها.

هل تعلمون يا أبنائى ان كثير من جند جيش نابليون الذى جاء معه إلى مصر كان من اليهود؟ ألم

تلاحظوا في حديثي أن اسم الجنرال السفاح الذى ذبح آلاف المصريين كان يدعى"زيون شك"؟

قال التلميذ:

- إن معناه "صهيون".

رد الأستاذ:

- نعم إن قصة دخول نابليون إلى مدن فلسطين ودخوله القدس الشريف، وخطبته لجنوده وهو واقف أمام الحرس، تفضح نواياه الصهيونيه.

قال بعض التلاميذ:

- كيف تم إغفال ذلك يا أستاذ فى كتب التاريخ؟

رد الأستاذ وهو يدرك الانفعال بالدهشة التى خيمت على تلاميذه:

- ينظر المسلمون والمسيحيون إلى اليهودية على أنها ديانة سماوية. لا تشكل عقدا عندهم فى ذلك الوقت.

لم يفكر المصريون فى ديانة الفرنسيين الذين يحتلون أرضهم، بل وصفوهم بالفرنسيس وحسب.

قال التلميذ:

- وهل يفسر انتهاك حرمة دين الإسلام المتمثل فى الأزهر بواسطة الجنود الفرنسيين، أنهم كانوا من اليهود الكارهين للإسلام والمسلمين.

قال المدرس:

- يمكن أن يكون ذلك تفسيرا من بين الأســباب العديدة التى دعت جند جيش بونابرت إلى ارتكاب ما قاموا به من دناءة وخسة فى المسجد الأزهر، وهدم المــساجد الأخرى.

ران الصمت على الجميع. قطعه المدرس بقوله:

- سوف أحدثكم بمشيئة الله عن حملة بونابرت على فلسطين وهزيمته فى عكا. ثم أحدثكم بعد ذلك عما حدث فى القاهرة بعد رحيل بونابرت. والآن هيا بنا لزيارة القلعة ومسجد محمد على.

*   *   *

المراجع

١- المرجع التاريخي لهذا الكتاب أساسه كتاب **(تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر)** للمؤرخ المصري الكبير: عبد الرحمن الرافعي.

ومؤرخنا العظيم عبد الرحمن الرافعي يستند في كتباه علي ما كتبه مؤرخ مصر الكبير عبد الرحمن الجبرتي ليبين وجهة النظر المصرية فيما جري من أحداث في تلك الفترة، لكنه يؤكد أو يتحفظ علي بعض ما جاء به بعد رجعه إلى المصادر الفرنسية التي أورت تفاصيل من معارك ومناوشات، وخاصة عند احتلال الإسكندرية وما جري فيها، حيث أن الجبرتي كان يعيش في القاهرة ويذكر ما تواتر من أنباء القتال في الإسكندرية.

إحدي صفات المؤرخ الموثوق والتي يجب ان تتوافر في سرد التاريخ، الاعتماد علي التوثيق والحيدة في السرد. هذا هو ما فعله مؤرخنا العظيم عبد الرحمن الرافعي، اقتداء بمؤرخنا الكبير عبد الرحمن الجبرتي، وهذان المؤرخان هما بحث من مفخرة مصر في عالم التاريخ. رحمهما الله رحمة واسعة.

٢- استعنت عند وضع هذا الكتاب، بالمرجع المصري الذي يعكس إحساس المصري بالأحداث، (**تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**) للعلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، وذلك لإستنباط الروح المصرية الخالصة فيما جري، دون التأثير بما ذكره الفرنسيون في وثائقهم التي أوردها عبد الرحمن الرافعي لتوثيق تاريخه لتلك الفترة. وتلك الأحاسيس المصري لم يغفلها عبد الرحمن الرافعي أبدا في كتابه، لكنه حاول ألا مهما تألم الكاتب وهو يؤرخ لبلده.

٣- وكان مصدري الثالث في وضع هذا الكتاب هو كتاب (**وصف مصر**) الذي ألفه علماء الحملة الفرنسية وترجمة: زهير الشايب. وهو تفاصيل دقيقة عن مختلف أوجه الحياة في مصر من وجهة نظر الفرنسيين العلماء الذين حشدهم نابليون بونابرت معه في غزوته لمصر.

والله ولي التوفيق،،

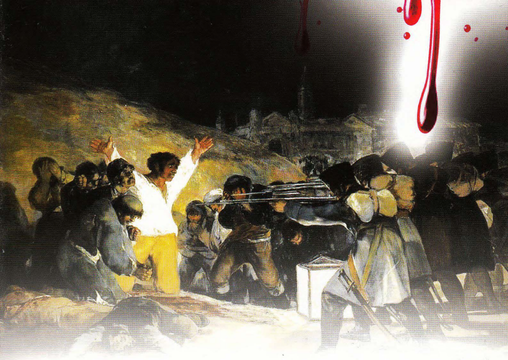

2.03
413sh
Bibliotheca Alexandrina
0943253

978-977-287-969-3
9 789772 879693

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين- القاهرة
٢٧٩٥٤٢٢٩
www.sbhegypt.org
e-mail : sbh@link.net
: Info@sbhegypt.org